القسم الثاني: الدعوة والإعلام الديني

ضعف الدعوة والاعلام الديني

عندما يرى الإنسان ما لدى المؤسسات التبشيرية المسيحية من الامكانات والوسائل والأدوات والأفراد، وما في حوزتها من الميزانيات الضخمة والتكتيكات المختلفة والمؤسسات الإعلامية، قد يتساءل في نفسه عما إذا كان الإسلام قادراً على مقاومته هذه الآلة التبشيرية الهائلة؟ إنه عجيب حقاً؛ فحينما نلاحظ واقعنا نجد أنفسنا في مستوى الصفر من جهة الأجهزة والمؤسسات الاعلامية. ولا يوجد أي دين في هذا العالم بدرجة ضعف الإسلام من حيث الأجهزة الإعلامية ومن حيث حجم الدعاة والمبلغين. حتى اليهود وهم أقلية صغيرة، نجدهم مجهّزين بكل شيء، على الاقل في مجال التحريف. فليس لليهود جانب ايجابي يدعون الناس إلى اليهودية بسببه، إلا أنهم أقوياء كعامل سلبي لتخريب الآخرين. إنك ترى شخصاً يهودياً يدرس الإسلام لسنوات طويلة في الجامعات لكي يحصل على مقعد الدراسات الإسلامية في جامعةٍ ما، ثم يقوم من خلال ذلك بمهمته التخريبية، أو يكتب كتاباً عن الإسلام يبث من خلاله أفكاره الهدّامة. هل تعلمون (وقد سمعتُ هذا تكراراً من المطّلعين) أن أكثر من 90% من مقاعد الدراسات الاستشراقية في جامعات العالم يشغلها اليهود؟ وأن اليهود هم القائمون على الدراسات الاستشراقية في العالم؟ فكم لهؤلاء من القدرة على ضرب الإسلام؟

رغم هذا. فقد قرأتُ قبل فترة في إحدى الصحف (نقلاً عن صحيفة لوموند الفرنسية) أن 14 مليون شخص قد اعتنقوا الإسلام في العالم خلال السنوات

الأخيرة. ولكن بأي عمل إعلامي؟. لم يكن ثمة دعاة معبؤون لهذه المهمة، ربما لم يكن هناك أكثر من بعض البرامج الإذاعية التي كانت تبث أحياناً من الاذاعات العربية. وحول هذا الموضوع تحدثت مع شخص ذي إطلاع واسع كان قد قدم من أوروبا. فقال: إنني تحدثت مع أحد المسؤولين المسيحيين حول خبر «اللوموند»، فقال: لقد أخطأت الصحيفة في إحصائها، والرقم الحقيقي هو اعتناق 25 مليون شخص الإسلام خلال السنوات الأخيرة، وأضاف: إن قوتين تتقدمان اليوم في إفريقيا: الإسلام والشيوعية. أما المسيحية فهي لاتحرز أي تقدم يذكر رغم كل الأنشطة التي تبذل ورغم ما تملك من الامكانيات الاعلامية الواسعة، ورغم ضعف الإعلام الإسلامي. والسبب هو أن المحتويات مختلفة. فمحتوى الإسلام قوي ومنطقي، بينما محتوى المسيحية عاطفي. محتوى الإسلام عملي ويهتم بالحياة العملية، بينما محتوى المسيحية فرضي. فالكلمة الأولى للإسلام تنفذ في القلوب كالماء في فم العطشان. فالإسلام يتحدث بالعقل، وبالعقل يثبت وجود الخالق والتوحيد، ولكن الكلمة الأولى للمسيحية تقول: دع العقل جانباً وآمن بنظرية التثليث[1].

مكانة المبلغين ودعاة الإسلام

وإذا قلتُ لكم إنّ مكانة الداعية الإسلامي الذي يُبَلِّغ أهداف الرسالة الإسلامية لعموم الناس ويقوم بالتعريف بالإسلام باعتباره مدرسة الحياة هو في الواقع ليس أقل قيمةً من مكانة مرجع تقليد المسلمين لا يحتاج الأمر منكم إلى العجب. فهو مقام بهذه الحدود. بالطبع هناك أمور يشترط توافرها في مرجع التقليد لكنها غير مطلوبة في المبلِّغ. لكن مجتمعنا للأسف عندما يصل إلى هذه المسألة تراه ينسى كل شيء. فما هو رأسمال المُبلِّغ في مجتمعنا الراهن؟ ومن أين يبدأ المُبلِّغ في صعود سُلَّم المقام التبليغي؟ فأي فرد في المجتمع اليوم يملك صوتاً جميلاً ولديه قدرة بسيطة في تلحين الشعر وحفظ عددٍ بسيط من الأشعار تراهُ يتدرجُ شيئاً فشيئاً ليصبح مداحاً في المناسبات

(1) مطهري. حماسه حسينى [الملحمة الحسينية]، ج1، ص199-201.

الحسينية، فيقف جنب المنبر الحسيني ويبدأ بقراءة بعض المديح وبعض المراثي الحسينية في البداية.

ثم تراه فجأةً بعد مرور فترةٍ بسيطة قد وضع شالاً (أسود أو أخضر) على كتفه وأخذ يقف هذه المرة على السُلّم الأول من المنبر الحسيني ـ وليس بجانبه ـ ثم يبدأ بالقراءة والخطاب الحسيني مدةً من الزمان، وينقل من كتاب (الجودي) أو (الجوهري) أو (جامع التفصيل) وقصةً من هنا وحكايةً من هناك، فإذا ما سألته من أين لك بهذه الحكاية؟ قال لك من صدور الواعظين أو لسان الواعظين فتتصور أنت للوهلة الأولى أنه يُحدِّثك من كتاب لا تعرفه أو لم تسمع به، ولكنك إذا ما دققت قليلاً تفهم أنه يقصد أن أحداً من الوعّاظ قد نقل له شفهياً هذه الحكاية أو تلك القصة. وبالتالي فإنّ أغلب حكاياته قد سمعها من هذا أو ذاك من الناس، ولا يهمه إن كانت صحيحة أو كاذبة أو مُلفَّقة. فهو لا يدري ما الخبر أصلاً وعمّ يدور الحديث. فكل ما يهمه هو الاستمرار في المهمة بهذا الشكل التصاعدي فتراه قد جمع في هذه الأثناء عدداً من المستمعين الخاصين به، وشيئاً فشيئاً تراه يصعد السُلّم الثاني من المنبر الحسيني ويبدأ عوام الناس بالالتفاف حوله. ولمّا كانت أكثرية الناس تبحث عن المجالس المكتظة، ولمّا كان أصحاب المجالس الحسينية لا يهمهم في الدرجة الأولى سوى كثافة الحاضرين، فإن أمثال هؤلاء الوعاظ! يزدادون ويزدهر سوقهم دون أن يفكر صاحب المجلس الحسيني عن السبب وراء هذا الحشد من الناس. فهل المهم أن يكتظ المجلس بالمستمعين؟ أم أنّ المهم ماذا سيسمعون؟! إنها خيانة بحق الإسلام أن يكون الوعظ والتبليغ قد بدأ من مرتبة القدرة على تلحين بعض الأشعار. ويبدو أن هذا الأمر قد أصبح قاعدة عامة ومنتشرة في كل مكان وقد أصبحت للأسف معياراً وملاكاً وهو ما رأيناه ولمسناه في كثير من الأماكن التي زرناها. ولكن الويل لنا إذا ما بقينا على ما نحن عليه في هذا المجال، فنحن الآن نعيش عصر العلم والشك والتردّد؛ إننا نعيش عصراً مليئاً بالشبهات التي تُثار حول الإسلام ويزداد فيه المخالفون للإسلام. وليس هناك يوم يمر إلّا ويقرأ الإنسان مقالة أو حديثاً أو خبراً ضد الإسلام في المجلات والصحف اليومية أو يسمع من هذا القبيل عن

طريق الإذاعة أو التلفزيون وسائر الوسائل الإعلامية الحديثة.

في مثل هذا العصر لا بدّ للمبلِّغ أن يُحسن القول ويملك القدرة على الاستدلال. وإذا ما كانت شروط المُبلِّغ في الأزمان السابقة صعبة وخطيرة، فهي في العصر الحاضر أصعبُ منها وأخطر بعشرات بل بمئات المرات[2].

الاستخفاف بمهمة التبليغ والدعوة

إنّ منطق القرآن يعتبر عمل التبليغ والهداية والإرشاد عملاً صعباً وشاقاً للغاية، في حين أنّ مجتمعنا لا زال يرى هذا العمل عملاً صغيراً وخفيفاً، بل إنّ الأمر قد وصل إلى درجة أنّ أهل العلم والفضل، صار أحدهم يخجل من صعود المنبر وتولي أمر الخطابة، وصار يُقال إنّ فلاناً من الناس عالم ولا يجوز الحط من شأنه ومطالبته بصعود المنبر والقيام بمهمة التبليغ. فذنبُ من هذا؟ إنه ذنب المجتمع والجمهور العام. إنّ المجتمع بشكل عام قد خفّض وحطّ من شأن التبليغ حتى صار العالم يستنكف ارتقاء المنبر ويرى أنه من العار عليه أن يُنزِّل من مقامه إلى الحد الذي يتولى فيه أمر التبليغ والهداية. لكن نحن لدينا الآن والحمد لله في مقابل ذلك أفراد يحملون الفضيلتين معاً أي إنهم في موقع إمام الجماعة كما أنهم في الوقت نفسه لم يتركوا عمل الخطابة والتبليغ (مثل الدكتور مُفتح) غير أن مجتمعنا للأسف ينظر إلى إمام الجماعة نظرة احترام وتقدير أفضل من نظرته إلى الخطيب والمُبلِّغ. في حين أن القيام بواجب إمام الجماعة بالوقوف أمام المُصلين والصلاة بالناس لا يحتاج إلى فن. ولأنني شخصياً عايشتُ جو الوظيفتين ومررتُ في الحالتين أي إنني كنت إمام جماعة لفترة من الفترات وكنت خطيباً لفترة أخرى لذلك أقولها بكل صراحة إنّ الناس كانت تعاملني وأنا في المحراب باحترام أكثر مما تعاملني وأنا خطيب، وهذه حقيقة والله شاهد على ذلك.

فقد قضيت فترةً في شهر رمضان وأنا أُصلي في الناس جماعة في أحد المساجد ثم صرتُ خطيب المسجد في فترةٍ أخرى فرأيت الفارق بين

(2) مطهري. حماسه حسينى [الملحمة الحسينية]، ج1، ص347-348.

المعاملتين إذ كانوا يعاملونني عندما كنتُ إمام جماعتهم باحترام أكثر من معاملتهم لي وأنا خطيبهم. مما جعلني أعتقدُ أن الناس تفضِّل وتُقدِّر اللافن على العمل الفني. فلماذا ينبغي أن يكون وضعنا هكذا؟

فها نحن بأيدينا نُنزِّل ونحطُ من هذا المقام العظيم والرفيع، فالنبيّ الأكرم نفسه كان مُبلِّغاً وواعظاً وإماماً وخطيباً. . .

ما هي خطب نهج البلاغة؟

إنها منبر الإمام عليّ عليه السلام. فعليٌّ إذن كان خطيباً في الناس قد سجَّل لنا التاريخ خطبه هذه. فصارت مجموعةً في (نهج البلاغة). وهذا دليل آخر على أهمية مقام التبليغ في الإسلام وعظمته في حين أن مقامه بيننا الآن صغير وحقير.

وكانت نتيجة ذلك أن رسالة الإسلام لم تَعُد تصل إلى الاسماع. والعلة تكمن فينا نحنُ، فنحنُ قد خرَّبنا الموضوع بأيدينا، فعندما يأخذ وضع الخطابة والخطيب هذا الموقع المتدني في أعين الناس ويسقط هذا السقوط الكُلي اجتماعياً فإنه عند ذاك سيجد كل عالم أن كرامته ومقامه لا يسمحان له بممارسة مهمة الخطابة والتبليغ وهداية الناس وإرشادهم، ومن ثم فإن هذه المهمة ستقع بأيدي أفرادٍ غير مؤهلين لمثل هذا المقام الرفيع وتصبح مهمة الوعظ والتبليغ تراوح مكانها ولا تغادر موقع الشعر المُلحَّن والقُدرة على نقل أشعار المديح وبعض المراثي الشعرية. وهل بالإمكان عند ذلك أن نتوقع أن يصل نداء الإسلام ونداء السماء الربّاني ونداء محمد ونداء عليّ وفلسفة هذا الدين العظيم الواسع ذي الأبعاد المتنوعة والمختلفة الدنيوية منها والأخروية، أن يصل كل هذا سالماً إلى الناس؟ إنه انتظار وتوقع في غير محله وخاطئ لا محالة![3].

(3) مطهري. حماسه حسينى [الملحمة الحسينية]، ج1، ص356-359.

الإعلام الضعيف والميول المادية

إن أحد أسباب الميول المادية والاتجاهات المعارضة للدين هو ضعف المنطق الإعلامي الذي نلمسه لدى الكثير من الدعاة، حيث يخوضون ـ بمستويات ضعيفة من الثقافة الدينية ـ في موضوعات الحكمة الإلهية الشائكة مثل: عدالة الله، القضاء والقدر، الإرادة والمشيئة الإلهية، القدرة الإلهية، الجبر والاختيار، حدوث العالم وقِدَمه، القبر والبرزخ والمعاد والجنة والنار والصراط والميزان، وغير ذلك، وغالباً ما يتصور المستمعون أن ما يقوله هؤلاء الجهلة والغافلون يعكس حقيقة الثقافة الدينية، وأن هؤلاء قد وصلوا إلى أعماق هذه الثقافة.

إنها مصيبة كبيرة لأهل العلم والمعرفة أن يستغل أفراد لايحسنون شيئاً من أسس الفكر الديني كما لا يفهمون الأفكار المادية، أن يستغلوا الفوضى المتحكمة في الجهاز الإعلاميّ الديني ـ ولا سيما في المجتمع الشيعيّ ـ ويكتبوا كتباً في الرد على المذاهب المادية، فينسجون أفكاراً خاطئة تثير السخرية والاستهزاء. ومن الواضح أن هذا النوع من الإعلام الدينيّ يصب في مصلحة الماديين[4].

علماء الدين والوعي العصري

«العالِمُ بزمانه لاتهجم عليه اللوابس» هذه فقرة من حديث مطول روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في كتاب الكافي[5]، وتعني أن الواعي بشؤون عصره لا يقع في فخ الأمور المتشابكة والمعقدة بغتة وعلى حين غرّة، فلا يضيع في المتاهات ولا يفقد قدرته على التفكير واتخاذ القرار المناسب، إنها كلمة عظيمة حقاً.

وجاء في فقرة أخرى من الحديث: «لا يفلح من لا يعقل، ولا يعقل من لا يعلم» أي أن العقل يزداد ويتضاعف بالعلم، والعقل يعني امتلاك القدرة

---

(4) مطهري. علل گرايش به ماديگري [الدوافع نحو المادية]، ص187.
(5) الكليني. **أصول الكافي**، ج1، ص26 و27.

على تحليل القضايا وربط بعضها بالبعض الآخر والتوصل إلى نتائج سليمة. فالعقل يتغذى على مائدة العلم. والعقل مصباح وقوده العلم. ثم تواصل الرواية: «وسوف يَنْجَبُ من يفهم» فنتيجة الفهم والإدراك هو أن يكون الفرد نجيباً، أي فاضلاً ونفيساً، وتعني هذه الكلمات ضرورة أن لا نخشى من العلم، وأن لا نعتبره أمراً خطيراً.

ولكننا مع الأسف نقف في النقطة المعاكسة لعبارة «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس». حيث أننا، من البداية إلى النهاية، ومن الباب إلى المحراب، غافلون عن زماننا، وسادرون في غفلتنا حتى تهجم علينا اللوابس بغتة، فترانا نواجه على حين غِرة قانون الإصلاح الزراعي مثلاً، ذلك لأننا كنا في غفلة عن زماننا ولم نكن على وعي بما يجري من حولنا، لذلك فإننا لم نحسب لكل شيء حسابه ولم نعرف ماذا يجب أن نعمل.. وهكذا نستمر في الغفلة عما يجري في العالم وما يُحاك لنا وراء الستار حتى نواجه بغتة مسألة الحقوق الإجتماعية للمرأة، دون أن نجد فرصة الاستعداد للمواجهة، وتركيز أفكارنا، ودون أن نعي: هل هذه المسألة حقيقية؟ هل من يرفع شعار الدفاع عن حقوق المرأة، يعني ذلك حقاً؟ هل هؤلاء حقاً مطالبات إجتماعية جديدة؟ أم أنهم يقصدون من وراء ذلك أهدافاً أخرى؟ وهكذا تهجم علينا اللوابس تباعاً ونحن في الغفلة سادرون[6].

بعض المسلمين يعلن الحرب ضد كل شيء!

إن بعض المتظاهرين بالقدسية وأدعياء الإعلام الديني يشنون حرباً شعواء ضد كل شيء، شعارهم هو: إذا أردت أن تكون متمسكاً بالدين فعليك أن تترك كل شيء، لا تبحث عن المال والثروة، اترك عنك الوجاهة الإجتماعية، اهجر الأهل والبنين، اهرب من العلم فإنه الحجاب الأكبر وعامل الضلال، لا تكن فرحاً ولا مسروراً، فرَّ من الناس واعتزل المجتمع، وغير ذلك من الشعارات..

(6) مطهري. ده گفتار [المقالات العشرة]، ص177-178.

ومن هذا المنطلق، لو أراد الشخص الاستجابة لفطرته الدينية، فعليه أن يحارب كل شيء في الحياة. وعندما يكون مفهوم الزهد قائماً على ترك الوسائل والأسباب المعيشية، وترك الموقع الإجتماعي والعزلة والإبتعاد عن الناس، وعندما تعرض الغريزة الجنسية على أنها مسألة قذرة، وأن أطهر الناس من يعيش كل حياته عازباً، وعندما يُطرح العلم على أنه عدو الدين، ويُقذف بالعلماء في النار باسم الدين، أو تُقطع رؤوسهم تحت المقصلة، عندما يحدث كل ذلك فإن الناس ينظرون إلى الدين نظرة سلبية ومتشائمة[7].

مسؤولية الدين الدعوية

بالنسبة إلى علماء الدين سأعرض عليكم بحثاً كلياً يتلخص في أنّ نقطة انحراف عالِم الدين الأساسية تكمن في أنه يرى نفسه دائماً في مواجهة نقاط ضعف الناس وعيوبهم.

إن نقاط الضعف الروحية والأخلاقية والإجتماعية للأفراد تعتبر أحد أنواع الأمراض. ففي الأمراض الجسمية غالباً ما يحس المريض نفسه بالألم فيذهب لمعالجته. لكن الأمر مختلف في الأمراض الروحية إذ إنه يصبح أكثر تعقيداً من حيث إن الشخص المبتلى هنا لا يُدرك أنه مريض! بل إنه على العكس من ذلك قد يتصور أنه أكثر سلامةً من غيره! وربما يصبح متعلقاً بمرضه ذلك بشدة! والأفراد لا يرون نقاط ضعفهم ولا يشخصونها على أنها نقاط ضعف ينبغي معالجتها، بل يرون فيها نقاط قوة ينبغي عليهم ترسيخها. إن وظيفة العالِم ومسؤوليته أن يُدرك ويُشخص نقاط ضعف مجتمعه.

إن تصرف عالم الدين في مواجهة نقاط ضعف مجتمعه يتخذ حالتين:

الأولى: أن يكافح نقاط الضعف هذه، وفي أغلب الأحيان سيكون الناس غير راضين عنه!

والأخرى: أن يرى في عملية مكافحة نقاط ضعف المجتمع أمراً صعباً

(7) مطهري. إمدادهای غیبی [الإمدادات الغيبية]، ص46-47.

ومهمة عسيرة وأنها مسألة تجلب له الضرر وليس فيها أية منفعة شخصية تذكر، وبالتالي فإنه سينتخب أُسلوب الاستفادة من نقاط الضعف المنتشرة! وهنا سينطبق عليه قول الرسول الأكرم ﷺ ويصبح مصداق «الفقيه الفاجر» وهي الفئة الاجتماعية التي عُرفت على أنها من آفات الدين الثلاثة.

سوف نترك الحديث عن سائر القضايا الأخرى ونركز بحثنا على واقعة عاشوراء. إنّ العمل الذي درج الناس على ممارسته ينطوي على نقطتي ضعف أساسيتين في موضوع إقامة المجالس الحسينية:

أولاهما تكمن في أن المؤسس أو المؤسسين وأصحاب المجالس الحسينية سواء تلك المجالس التي تقام في المساجد أو في البيوت (على الخصوص) وفي حدود تجربتي الشخصية [فإنه لا استثناء في ذلك] لا يهمهم إلا نقطة واحدة هي ازدحام الناس وكثرة توافدهم على مجلس العزاء! فإذا ما حصل ذلك الإزدحام والتوافد كان به، وإلا فإنهم لن يرضوا عن ذلك المجلس! وهذه نقطة ضعف. إن هذه المجالس لم تُقرر من أجل ازدحام الناس فيها! فهل نحن أمام استعراض عضلات أو عرض مسرحي؟! بل إن الهدف من وراء ذلك هو التعرف على الحقائق ومكافحة التحريف. هذه هي إحدى النقاط التي عادةً ما تواجه القارئ والواعظ الحسيني، وبالتالي فإنه أمام خيارين وإمّا أن يواجه نقطة الضعف هذه باسلوب المكافحة والتغلب عليها أو أن يستخدمها ويستغلها لإنجاز مهمته! فإذا اختار أُسلوب المكافحة فإنه سيقف في موقف متعارض وغير منسجم مع هدف صاحب العزاء والمستمعين الذين غالباً ما تُسرهم مثل تلك الإجتماعات الحاشدة، لكنه إن اختار طريق الإستفادة من نقطة الضعف المذكورة فإن همه سيكون البحث عن أفضل الطرق والوسائل التي تساعده في حشد الناس وهنا يصبح العالِم أمام مفترق طرق؛ إذ أنه يستطيع القول: ها هم الناس حمقى ولديهم هذه النقيصة وبالتالي فإنّه بإمكاني الإستفادة منها واستثمارها. لكنه يستطيع القول أيضاً إنه على الرغم من ذلك فإني سأنتخب طريق النضال ضدها وأتوجه نحو البحث عن الحقيقة.

ونقطة الضعف الأخرى التي يتميز بها الناس في قضية المجالس الحسينية وهي أكثر انتشاراً لدى عوام الناس لكنّ لحسن الطالع خفّت حدّتها في الآونة الأخيرة هي مسألة «حُب العرض المأساوي والتراجيّدي» لقضية الحسين.

إن الواعظ الحسيني يجب أن يُنهي حديثه بذكر مصيبة الحسين في كربلاء وذكر المصيبة هذا ينبغي أن لا يقف تأثيره عند بكاء الناس فالبكاء وحده لا يكفي، بل المطلوب أن يهتز المجلس من مكانه ويرتج ارتجاجاً وتظهر كل ملامح المأساة فيه. وأنا لا أنكر أن يهتز المجلس ولكن أقول إن اهتزازه ووقوع الهرج يجب أن لا يكون هدفاً في ذاته. فإذا كان الأمر كله يتم في الإتجاه الصحيح ويترافق ذلك مع شرح للحقائق وتبيانها دون اللجوء إلى قراءة التعزية الكاذبة أو اللجوء إلى التزوير والتحريف واختلاق أسماء لأصحاب الإمام الحسين عليه السلام ممن لا يعرفهم التاريخ كما لا يعرفهم الإمام الحسين نفسه لأنهم غير موجودين في الأساس، ويكون الإنسان غير مضطر لذكر أسماء لأبناء الحسين ممن لا وجود لهم في الواقع الخارجي أو ذكر أسماء لأعداء الحسين ممن لا وجود لهم أيضاً، فإذا سال الدمع على قاعدة الصدق والحقيقة، وحصل عندها الغليان واهتز المجلس وتمثلت كربلاء في ذلك العزاء فإنه أمر جيّد جدّاً. ولكن ماذا لو اختفت الحقيقة والصدق والإخلاص؟. فهل علينا أن نحارب الإمام الحسين عليه السلام ونُعاديه ونكذب عليه ونتقول عليه الأباطيل؟!

هذه هي نقاط ضعف عامة الناس. فما هو المطلوب منا مقابل ذلك؟ هل يجوز لنا أن نستغل نقطة الضعف هذه؟ وهل ينبغي استثمار هذه الحالة وركوب الموجة؟ ونقول لأن عوام الناس حمقى فلابد لنا من استغلال حماقتهم؟! كلا!، فإن الرسالة الخطيرة والكبيرة المُلقاة على عاتق العلماء هي مكافحة نقاط الضعف التي يعاني منها المجتمع.

ولذلك فإن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يقول: «إذا ظهرت البدع في أُمتي فليُظهر العالم عِلمَهُ، وإلّا فعليه لعنةُ الله»[8].

(8) القمي. **سفينة البحار**، ج1، ص63. الكليني. **أصول الكافي**، ج1، ص 54.

والقران الكريم يذهب إلى أبعد من ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: 159].

نعم فواجب العلماء في عصر ختم النبوّة مكافحة التحريف. ولحسن الطالع فإن وسائل هذا الكفاح وأدواته موجودة، كما أن هناك عدداً لا بأس به من العلماء ممن وقفوا هذا الموقف المشرّف حتى الآن. وما كتاب (اللؤلؤ والمرجان) الذي يتعرض فيه مؤلفه إلى موضوع واقعة عاشوراء التاريخية وهو الكتاب الذي تطرّقتُ إليه لمؤلفه الحاج نوري -رضوان الله عليه- إلّا تطبيقاً عملياً ومصداقاً حياً لهذه الوظيفة المقدسة جدّاً جدّاً والتي قام بها هذا الرجل العظيم على أحسن وجه وهي المصداق الحي للقسم الأول من حديث الرسولﷺ: «إذا ظهرت البدع في أُمتي فليظهر العالم علمه...»

إنّ من واجب العلماء في مثل هذه الحالات عرض الحقائق على الناس دون أيةِ مواربة حتى وإنْ أنفت الناس من أقوالهم. وإن من واجب العلماء أيضاً مكافحة الأكاذيب وكشف المُكذّبين وفضحهم على رؤوس الأشهاد. إن لدى الفقهاء مبحثاً خاصاً في باب الغيبة يقولون فيه بجواز الغيبة في الحالات الاستثنائية، وإنّ إحدى حالات جواز الغيبة والتي يمارسها العلماء الكبار كافة بل يرون لزوم حصولها بل أحياناً وجوب ممارستها هي عملية تجريح الراوي. فما هي عملية الجرح والتعديل؟ فعلى سبيل المثال لو نقل شخص رواية ما عن رسول الله ﷺ أو عن أحد الأئمة الأطهار فهل يجب تصديقه على الفور؟ كلا!، فالمطلوب أولاً إجراء التحقيق حول عدالة هذا الشخص الراوي وعما إذا كان معروفاً بالصدق أو بالكذب؟ فلو حصل أن اكتشفت مثلاً نقطة ضعف ما في سيرة هذا الرجل أو أية نقيصة أو عيب يذكر، أو ثبت لك اشتهاره بالكذب أو الفسق فهنا يلزم عليك بل يجب عليك أن تفضح هذا الرجل في الكتب. وهذا العمل يطلق عليه: الجرح. وعلى الرغم من أن هذا العمل يمكن نعته بالغيبة أو النميمة وأن الغيبة والنميمة غير جائزتين سواء بالنسبة للحي أو بالنسبة للميت إلّا أنه ما دام الأمر هنا يتعلق بتحريف الحقائق وقلبها فإنه ينبغي فضح ذلك الرجل مهما كلف الأمر فالكذاب يجب فضحه مهما كانت النتائج.

فمن الممكن مثلاً أن يبرز عالم ما في مجال ما ويحمل مواصفات رجل الدين مثل الملا حسين الكاشفي وهو العالم المعروف! لكن كتابه المعروف باسم (روضة الشهداء) مليء بالأكاذيب حيث تقوّل فيه على الجميع وحرّف أعمال العدو والصديق بما فيهم ابن زياد وعمر بن سعد. فلقد كتب مثلاً أن ابن زياد قد منح خمسين رطلاً من الذهب الأحمر لعمر بن سعد من أجل الذهاب إلى كربلاء ومقاتلة الحسين عليه السلام! فكل من يسمع بمثل هذا الحديث مثلاً سيفكر بأن ابن سعد ليس رجلاً سيئاً إلى هذا الحد الذي ينقل عنه الرواة، فخمسون رطلاً من الذهب الأحمر كانت كافية لإغراء أي إنسان ليذهب ويقاتل الحسين.

أمّا بشأن العلامة ملا آقا الدربندي مثلاً، فإن هناك اتفاقاً عاماً حول حُسن سيرته، حتى الحاج نوري الذي ينتقد كتابه بحق فإنه يقول عنه أيضاً بأنه رجل حسن السيرة والسلوك. وكما ينقل عنه فإنه كان رجلاً مخلصاً للإمام الحسين عليه السلام وأنه كان كلما يذكر اسم الحسين أمامه كانت دموعه تسيل من مآقيه، إضافةً إلى كونه عالماً بالفقه والأصول، وهو من جهته كان يُصنّف نفسه من فقهاء الدرجة الأولى.

ولكن الأمر ليس كذلك فهو من فقهاء الدرجة الثانية أو الثالثة فهذا العالم مثلاً يعرف عنه بأنه ألّف كتاباً باسم «الخزائن» وهو عبارة عن دورة كاملة في باب الفقه وقد تمت طباعته، والمؤلف من المعاصرين لصاحب «الجواهر».

وينقل عنه أنه سأل صاحب «الجواهر» يوماً عن اسم كتابه؟ فلمّا أجابه «الجواهر» ردَّ عليه صاحب (الخزائن) بأنه «يوجد من جواهرك هذه الكثير في خزائننا». لكن كتاب (الجواهر) تم طبعه عشر مرات حتى الآن وهو كتاب لا يمكن لأي فقيه أن يستغني عنه وعن مراجعته، بينما طبع كتاب (الخزائن) مرة واحدة ولم يرجع إليه أحد بعد ذلك أبداً! وقيمة هذا الكتاب لا تتجاوز في الواقع قيمة الألف صفحة من الورق المستهلك لطباعته.

وهذا الرجل على ما عُرف عنه من العلم فإنّه بكتابه «أسرار الشهادة» قد ساهم في تحريف واقعة كربلاء كلياً. إنه في الحقيقة قد قلب الحقائق رأساً

على عقب ونزع عن الواقعة أي أثر إيجابي يذكر، فيما ملأ كتابه بالأكاذيب!

فهل يجوز القول في مثل هذه الحالة بأن الرجل إذا كان عالماً وذا تقوى، ومن المشهورين بإخلاصه للإمام الحسين عليه السلام، يسمح لنا بالسكوت عنه، أو القول بأن المفروض من الحاج نوري مثلاً السكوت عن كتابه المعروف باسم (أسرار الشهادة)؟ كلا فهذا الرجل يجب أن يُجرح وهذه وظيفة العلماء ورسالتهم الخطيرة[9].

الفوضى في الدعوة الدينية

لا يفوتني هنا أن أُشير ـ كما ذكرت ذلك في بعض كتبي ـ أنَّ منشوراتنا الدينية ـ من حيث التنظيم ـ ليست كما ينبغي. ولنترك ناحية تلك المؤلفات المضرة أساساً والمخجلة إلى حدّ ما، ولندقق في المؤلفات المفيدة، فنحن لا نراها ترقى إلى درجة احتياجاتنا الضرورية، فكل كاتب منا يكتب كما يحلو له ثم ينشر ما كتبه، وما أكثر الموضوعات الضرورية التي لم يؤلف فيها حتى كتاب واحد، وما أكثر التي كُتب حولها أكثر من اللازم ولا زالت الكتب تصدر تترى الواحد بعد الآخر حولها!

ويشبه وضعنا هذا، وضع بلد لا يرتكز اقتصاده على أساس اجتماعي ثابت، فكل فرد ينتج حسب رغبته أو يستورد من الخارج حسب ما يروق له، دون أن تكون هناك جهة منظمة تعيّن ميزان إنتاج البضائع أو استيرادها حسب ما تفرضه احتياجات الدولة، وبعبارة أُخرى كل شيء قد أوكل إلى «الصدفة». ومن البديهي في وضع كهذا أن تعرض بعض البضائع بشكل أكبر من حاجة الاستهلاك المحلي وتبقى دون طلب، بينما تفتقد بعض البضائع اللازمة من السوق افتقاداً.

إذن ما هو طريق العلاج؟

إنه لسهل، والخطوة الأولى منه يستطيع تحقيقها تعاون المفكرين والكتّاب والباحثين.

---

(9) مطهري. حماسه حسيني [الملحمة الحسينية]، ج1، ص101-106.

ولكنّ ما يحزّ في النفس ويعتصر القلب أننا نعشق ذواتنا، فكل واحد منا يعتقد أن الحل الصحيح والوحيد هو ما وجده، وأن الآخرين جميعاً على الضلال، وأحياناً عندما أتبادل هذا الرأي مع بعض الكتاب والمفكرين فبدل أن أجد الحماس والتأييد لديهم فإني أُلاقي الضيق والإعراض ويحسبون ذلك مني تخطئة لهم[10].

مكبرة الصوت، مزمار للشيطان عند البعض

إذا كان الهدف مشروعاً فينبغي أن تكون الوسيلة مشروعة أيضاً. ولكن يخرج علينا من جهةٍ ثانية أُناس لا يقبلون حتى باستخدامنا للوسائل المشروعة، حيث يتطلب الأمر أحياناً جهداً كبيراً لإقناعهم بضرورة استخدام الوسائل الحديثة المشروعة. حتى هذا الميكرفون الذي نخاطبكم اليوم من خلاله، فهل تتصورون حجم المعارضة التي جوبهنا بها لاستخدامنا له؟! فلماذا كل هذه المخالفة؟ أليس الميكرفون بالنسبة للصوت، مثل النظارات بالنسبة للعيون، ومثل السمّاعة للُاذن. فالإنسان صاحب السمع الثقيل بعد استعماله للسماعة يصبح سمعه طبيعياً، فيستطيع مثلاً أن يسمع القران بعد أن كان لا يسمعه كما أنّه يستطيع أن يسمع السب والشتيمة جيّداً بعد أن كان لا يسمعهما. وهذا أمرٌ لا علاقة له بالسماعة والحالة هي نفسها مع الميكرفون، فالميكروفون ليس أداةً مخصّصة لعمل الحرام.

فالوسيلة التي يحرم استعمالها هي تلك الوسيلة المخصّصة لفعل الحرام فقط ولا يمكن استخدامها لغير فعل الحرام. كالصليب مثلاً أو الصنم فهي أدوات لا يخرج منها إلا عمل الشرك ولكن لماذا يحرم استعمال الوسائل التي يمكن استخدامها في الحرام كما يمكن استعمالها لعمل الحلال؟

ينقل أحد الخطباء المشهورين أنّه وفي السنوات الأولى التي اخترع فيها الميكرفون، وبينما كان قد بدأ لتوه في استخدام الميكرفون في الحديث من

(10) مطهري. عدل إلهى [العدل الالهي]، ص9 و10.

على المنبر أو بتعبيره ـ بعد أن صرنا نستمتع بجلوسنا على المنبر. ولكن استعماله لم يكن قد شاع وانتشر بعد، يقول ذلك الخطيب إنّه صادف أن أحد الوعّاظ الذين يسبقوني في القراءة ممن لا يُطيقون تحمل الميكرفون أنْ صرخ بأعلى صوته قائلاً: أبعدوا عني مزمار الشيطان! فما كان من القائمين على العزاء إلّا أن وضعوا الميكرفون جانباً بالفعل، لكنني رأيت أنّ الموقف لا يناسبني بهذا الشكل وإذا ما سكتُ اليوم فإنّهم سيحرمونني من نعمة الميكرفون على الدوام فلمّا جاء دوري قلتُ لهم بصوت عالٍ: إئتوني بمزمار الشيطان هذا يرحمكم الله!!

إذن فإنّ هذا الجمود الفكري والتخلّف الذي يُسيطر على أذهان بعضنا ليس في محله أبداً. فما هو ذنب الميكرفون؟ فأجهزة الراديو والتلفزيون والسينما ليست هي المذنبة. المهم أنْ نرى المضمون! ماذا يُقال في الراديو؟ وماذا يُقال ويُعرض في التلفزيون هو المهم؟ وماذا يُعرض في قصة الفيلم من موضوعات هو المهم؟ وهنا لا يجوز للإنسان أنْ يتحجر في تفكيره ويحوّل الشيء المشروع والحلال إلى شيء حرام وغير مشروع!![11].

(11) حماسه حسينى. ج1، ص215 و216.